الغلط في حقيقة العلم والاعتقاد

قال ابن القيم: "أكثر الناس غالطون في حقيقة مسمى العلم... فكل طائفة اعتقدت العلم ما معها، وفرحت به، ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ وأكثر ما عندهم كلامٌ وآراءٌ وخرصٌ، والعلم وراء الكلام، كما قال حماد بن زيد: قلت لأيوب: العلم اليوم أكثر أو فيما تقدّم؟، فقال: الكلام اليوم أكثر، والعلم فيما تقدّم أكثر، ففرّق هذا الراسخ بين العلم والكلام، فالكتب كثيرة جداً، والكلام والجدال والمقدرات الذهنية كثيرة، والعلم بمعزل عن أكثرها".

كثير من المتأخرين لم يفهم حقيقة العلم، فأخذ يستكثر من الكلام والجدال، ويظن أنّ ذلك هو العلم، ولم يكن السلف على هذه الحال.

قال ابن رجب: "وقد فُتن كثير من المتأخرين بهذا، فظنوا أنّ من كثر كلامه وجداله وخصامه في مسائل الدين، فهو أعلم ممن ليس كذلك، وهذا جهل محض" ثم ذكر أنّ الصحابة والسلف على خلاف ذلك، ثم قال: "فليس العلم بكثرة الرواية، ولكنه نور يُقذف في القلب، يفهم به العبد الحق".

كان السلف -كما ذكر الإمام مالك- يكرهون الكلام إلا فيما تحته عمل، لأنهم أدركوا حقيقة العلم، وفرقوا بينه وبين مجرّد استحضار المعلومة وبيانها، فحقيقة العلم في خطاب الشرع وكلام السلف: القيام به، وليس مجرّد استحضار المسائل، والتفنن في التعبير عنها.

وقد جاء عن الحسن أنه قال: "العلم علمان: علم باللسان، وعلم بالقلب، فالعلم النافع علم القلب، وهو الذي يصدّقه العمل، وأما علم اللسان فإنما هو توبيخ، يوبّخ العبد فيه نفسه إذا لم يصدّقه العمل".

فلو نظرت إلى أشرف العلوم، وهو العلم بالله وصفاته (الاعتقاد)، وجدت كثيراً من الناس يظن أنّ استقامة الاعتقاد في المعرفة المجرّدة لقول أهل السنة وبطلان قول المخالفين، والجدل القائم في مسائل الاعتقاد، والأمر ليس كذلك، فهذه المعرفة هي معرفة بمعلومات عقديّة، وأما الاعتقاد فأمر آخر، فربّ عامي أقوم اعتقاداً من حافظٍ لكتب العقيدة عالمٍ بالردود على المخالفين!، فربّ عامي يخاف الله في خلوته لأنه يعلم أنّ الله يسمع ويرى، ويقوم الليل لأنه استشعر عظمة النزول الإلهي، ويُقبل على القرآن لقوّة اعتقاده بأنه كلام الله، ورب حافظٍ لكتب الاعتقاد إذا خلى بمحارم الله انتهكها.

فالعلم بالعقيدة يكون بقدر القيام بها، لذا أمر الله تعالى نبيّه ﷺ قائلاً: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ و المراد -كما قال الزجاج- القيام بذلك العلم، فـ"من علم فليقم على ذلك العلم"، لذا جاء عن بعض السلف كأبي العالية وابن عيينة أنّ معنى الآية: أي: لا تلجأ ولا تفزع إلا إلى الله.

ووصف الله أهل الكتاب الذين نبذوا العمل بعلمهم بقوله: ﴿ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ قال قتادة: "أفسدوا علمهم".

فتبيّن أنّ العلم بالعقيدة يكون بقدر القيام بها، وليس بمجرد حفظ مسائلها، ومعرفة الردود والجدل.

لذا حرص السلف على تعليم العقيدة حق التعليم منذ الصغر، فزرعوا في نفوس الصغار، الإيمان بالله وتعظيمه، وحرصوا على تعليمهم الدعاء، وفي ذلك يقول محمد بن سحون في رسالته (آداب المعلمين): "وليتعاهدهم بتعلم الدعاء، ليرغبوا إلى الله، ويعرّفهم عظمته وجلاله، ليكبروا على ذلك".

وكان من نهج الصحابة -كما ذكر جندب وابن عمر رضي الله عنهما- تعليم الإيمان قبل تعليم القرآن، وكانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتى يعملوا بها، لذا أثمر تعليمهم، فإنّ العلم لا يُثمر إلا عند تحقيقه، وذلك بصلاح القابل له، وبالقيام به، ففي الحديث ((أنّ الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السنة)).

وأما إن فسد القابل للعلم، فلا تنفع كثرة الحفظ، ولا حسن البيان، فقد وُصِفَ الخوارج بذلاقة اللسان، وبأنهم ((يُحسنون القيل))، وجاء في الحديث أنهم ((يتلون كتاب الله لا يجاوز حناجرهم))، ((يحسبون أنه لهم وهو عليهم)).

وقال الحسن في تفسير قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ : "تعلّم هذا القرآن عبيد وصبيان، لم يأتوه من قبل وجهه، لا يدرون ما تأويله... وما تدبر آياته إلا اتباعه بعمله"، وقال: "أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إنّ أحدهم ليقول: قد قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفاً، وقد أسقطه والله كلّه".

والحاصل أنّ العلم النافع المثمر هو الذي يقوم به صاحبه، فعلم الاعتقاد النافع هو العلم الذي يجعلك تعظّم الله، وتنقاد لأمره، وتعرفه سبحانه حقّ المعرفة، فتراقب الله في خلواتك لأنك تعلم أنه يسمع ويرى.

كما قال القحطاني في نونيته:

وإذا خلوت بريبةٍ في ظلمةٍ ... والنفس داعية إلى الطغيانِ

فاستحي من نظر الإله وقل لها ... إنّ الذي خلق الظلام يراني

وليس الاعتقاد أنّ تعرف معرفة مجرّدة قول أهل السنة والجدل مع المخالفين، فكما قال ابن القيم: "فالعلم أمر آخر وراء الشكوك والإشكالات وإبداء تناقض الخصوم".

ولمّا ذكر العلائي أثر معرفة صفات الله، قال: "وهذا الذي أشرت إليه أمر جليل، ومطلوب نبيل، ثوابه جزيل، وهو وراء ...علم الكلام... ولذلك ترى كثيراً من أهله قد غلبت عليه الشكوك".

وكلام السلف في ذم الجدال في الدين، وبيان أنه يصد عن العمل ويُفسد القلب، ويزرع النفاق، كثير جداً.

فالمقصد الأول من معرفة الصفات: تعظيم الله، والتعبد له بمقتضاها، لذا كان من أوجه إنكار السلف على الجهمية المعطلّة: بيان أنّ مآل مقالتهم: نفي تعظيم الله وإفساد التعبّد له.

فلابد أن يكون استحضار تعظيم الله والتعبد له عند ذكر الصفات هو المقصد الأول، لا أن يغلب على المسلم استحضار الحالة الجدلية!، فإنّ الجدل في ذلك غرضه حماية ذلك المقصد، لا الصد عنه، فهو بمثابة دفع الصائل، لذا قال ابن تيمية: "أما الجدل فلا يُدعى به، بل هو من باب دفع الصائل".

فلا ينبغي أن يقود الإنسان إلى إفساد مقصد التعبد، وقد جاء عن الحسن أنه سمع قوماً يتجادلون، فقال: "هؤلاء قوم ملّوا العبادة، وخفّ عليهم القول، وقلّ ورعهم، فتكلموا".

والسلف عند ذكر الصفات يذكرون أنها لتعظيم الله والتعبد له، وقد بوّب ابن منده باب (ذكر معرفة أسماء الله عز وجل الحسنة، التي تسمى بها وأظهرها لعباده، للمعرفة والدعاء والذكر)، فبيّن مقاصد هذا العلم الجليل.

وذكر أهل العلم -كيحيى بن عمار مثلاً- في صفة الاستواء، أنّ الله أخبر عباده بها، وفطرهم على الإقرار بعلّوه، لحاجة العباد إلى معرفة ذلك في تعبّدهم ودعائهم.

وفي رؤية الله قال الشافعي: "لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى الله، لما عبد الله".

فالسلف أدركوا حقيقة العلم بالصفات، فحقّقوا مقاصده فظهرت فيهم آثاره، فقاموا الليل لعلمهم أنّ الله ينزل في الثلث الأخير، واتقوا ربهم في خلواتهم لعلمهم أنّ الله يسمع ويرى، وهكذا.

وفي عقيدة عدم خلق القرآن وأنه كلام الله، ظهر تعظيمهم للقرآن والاهتمام به، فرُوي عن بعض الصحابة والتابعين أنهم كانوا يُقبلون بشوق وفرح ومحبة على القرآن، ويقولون: (كلام ربي، كتاب ربي)، وقال القابسي لمّا سُئل عن فضل القرآن: "فيكفيك من فضل القرآن معرفتك أنّ القرآن كلام الله غير مخلوق".

فتأمل تأثير هذه العقيدة، لذا من أوجه إنكار السلف على من قال بخلق القرآن: ما آلت إليه هذه المقالة من عدم تعظيم القرآن في النفوس، ومن إبطال الرسالة والتشريع.

وحاصل ما تقدم يختصره ابن تيمية بقوله: "فإذا كان أحدهم أكثر محبة لله وذكراً وعبادة كان الإيمان عنده أقوى وأرسخ من حيث المحبة والعبادة لله، وإن كان لغيره من العلم بالأسماء والصفات ما ليس له، فصاحب المحبة والذكر والتألّه يحصل له من حضور الرب في قلبه وأنسه به ما لا يحصل لمن ليس مثله".

مفرّغ من مقطع صوتي لـ

ناصر بن عبد الله آل مُتْعِب